

حوار مع جريدة الوسط (5)

لماذا نعادي الأموات ونحن تربطنا بهم علاقة روحية وطيدة؟
السيد يوسف الرفاعي: نعم بعض الجهلة من العوام يقبلون الحديد ويستغيثون بأصحاب الأضرحة

كتب: مهدي عبدالستار

بعد أن كثر الجدل حول الفكر الصوفي والصوفية في الكويت، كثير من الشبهات أثرت حول ما يحمله هذا الفكر من مضامين عقائدية وثقافية وفكرية، وطقوس يراها البعض أنها «كفر بواح»، وخروج عن الدين، بينما يراها البعض الآخر أنها جزء من الدين وأنها لا تخرج معتقها أو من يمارسها عن دائرة الإسلام...

الاستغاثة بغير الله، الطواف بالقبور، ضرب الشيش وترويض الحيات، قصة برقمة البلبل وعلاقتها بالرفاعية، أقوال بن عربي في إبليس، ودور الصوفية في إهمال العلم الشرعي، والولاية والكشف... محاور محاكمتنا لشيخ الطريقة الرفاعية السيد يوسف هاشم الرفاعي، فإلى التفاصيل:

التوسل المشروع

{ ذكرت حضرتك أن لديكم في المنهج الصوفي لا حرج من التوسل بالأموات، فلماذا لم يتوسل عمر بن الخطاب في استسقاؤه بالرسول صلى الله عليه وسلم في قبره بعد وفاته وكانوا بالقرب من قبره صلى الله عليه وسلم، وإنما توسل بالعباس «وهو حي» عم الرسول إذا كان التوسل بالأموات جائزا؟

- قيل إن السبب في ذلك أمران: الأول أن الاستسقاء يكون خارج المسجد، ويكون بمن يدعو ويؤمن الناس على دعائه، والنبي صلى الله عليه وسلم وآله لم يكن موجودا يصلي بهم، وكان لا بد من رجل يدعو ويؤمن الناس عليه، وقيل إن عمر خشي أن يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا يثابون، فيكون ذلك ذريعة للشك في صدور الناس، ولكن دعونا نتكلم عن أمرين:

أولا: الحديث يدل على التوسل بالذات لأن هناك من يقول: نتوسل بالدعاء وليس بالذات. لماذا اختار عمر العباس، ألدعائه، أم لذاته؟ علما بأن في الصحابة من هو أسبق منه إسلاما وهجرة، وكانت لعمر سوابق عظيمة في الإسلام وغيره من الصحابة، وهذا يدل على أن التوسل ينبغي أن يكون بشخص له صلة بالذات المحمدية، فاختر رجل من أهل البيت، ونريد أن نقول: إن عمر له مواقف كثيرة تدل على ذلك، فقد طلب من علي أن يزوجه ابنته أم كلثوم لأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كل حسب ونسب مقطوع إلى يوم القيامة إلا حسبي ونسبي»، وقال أريد أن تكون لي صلة بكم أهل البيت. كذلك فالتوسل بالأموات الأمر خلافي، ومادام خلافا فلا يكفر فيه المسلم والجواز يقول به الأغلبية، أي يجوز التوسل بالأموات وفئة قليلة هم السلفية أو الوهابية هم الذين يرفضون ذلك، ثم إن الشهداء أحياء عند ربهم، بنص القرآن الكريم قال تعالى: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل

الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» (آل عمران آية - 169)، فكيف بالصديقين؟ وكيف بالأنبياء؟ وكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: «الأنبياء أحياء في قبورهم» صلى الله عليه وسلم وآله وعليهم أجمعين، وفي ليلة الإسراء صلى بهم، ورأهم في السموات العلا.

مظاهر الشرك

{ لكن ما يحدث على أرض الواقع بالنسبة للتوسل هو غير ذلك يا سيد، إذ إن عامة الناس الذين يذهبون للتوسل تراهم يطوفون بالمقابر ويقبلون الحديد ويتمسحون بالأضرحة ويستجيرون ويستغيثون بأصحابها أليس هذا من مظاهر الشرك والكفر البواح؟

- لو حدث خلل في إشارات المرور ونتجت عن ذلك حوادث هل معنى ذلك أن نلغي الإشارات والمرور كله؟ زيارة القبور مسنونة، فإذا حدث ذلك، هل نمنع الزيارة أم نعلم الناس آداب الزيارة الصحيحة؟ فالخلاف بيننا وبين إخواننا أنهم يريدون أن يمنعوا الزيارة بالكلية، ونحن نقول لا، بل علموا الناس آداب الزيارة، ونتفق معكم أن هناك من يسيء بجهله لزيارة القبور وليس كل الناس فقهاء ومتعلمين، ونقر بأن هناك جهلة يقبلون الأضرحة ويستغيثون بأصحابها، وهذا لا يقتضي أن نقول إن زيارتها حرام أو شرك، بل يجب علينا أن نعلم الناس الصواب، ثم إن كثيرا من الناس عندما نسأله عن سبب زيارته وتوسله بالولي، يقول لنا: إنه يعتقد أن صاحب القبر له جاه عند الله وقريب من الله وبعضهم قد يسيء التعبير، لكنه يرجو من الله قضاء حاجته ببركة هذا الولي، فهو قد أساء التعبير وقد ساق الرسول صلى الله عليه وسلم لنا مثلا في حديث الرجل الذي ضاعت دابته في الصحراء ونام وقال بعدما وجدها عند رأسه: (اللهم أنت عبيدي وأنا ربك)، وضحك الله من مقولة الرجل، ولم يقل عنه النبي صلى الله عليه وسلم إنه كفر بمقولته هذه، فأحيانا يندش المرء من أمر فيعبر بخطأ عن فرحته، وهؤلاء الناس لا يجوز أن نلقي عليهم تهمة الشرك، لكن نقول عنهم (جهال) ويجب علينا أن نعلمهم، بدليل أن الصحابة كانوا يرون مثل هذه الأمور ولم يتهموا بعضهم البعض، وكانوا يعلمون ويتعلمون.

كما لا يجوز لنا أن نعادي الميت فهناك صلة روحية بيننا وبين الأموات لأنهم في عالم البرزخ ونحن نعتقد أن القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار، فهناك علاقة تربطنا بهم، علما بأن الميت يفرح بالهدية التي تهدي إليه من الدعاء أو مما ترك من عمل، وكذلك من استغفار الملائكة له في قبره، راجع (كتاب الروح لابن القيم)، و(كتاب حادي الأرواح له).

ونحن مكلفون بالدعاء للميت والصلاة عليه وإن كنا لا نعرفه، وهذا يدل على أن انتفاعه بدعائي مستمر، لماذا أقول رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين؟ والله يقول لرسول رحمته: «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك، وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم» (محمد الآية - 19) والرسول الحبيب يقول «أنا أولى بكل مؤمن ومؤمنة في الدنيا والآخرة» والله تعالى يقول: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» (الأحزاب آية - 6)، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يزور البقيع ويدعو لأهله كثيرا وكذلك فعل الصحابة والسلف الصالح عبر الأجيال حتى يومنا هذا.

غضب الرسول

{ إذن كيف نوفق بين قولكم هذا وبين غضب النبي صلى الله عليه وسلم، لما قال له الصحابي (لو شاء الله وشئت يا رسول الله) وغضب الرسول صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا وقال له: «أتجعلني شريكا لله .. أتجعلني ندا لله؟!».

• الرد على ذلك بآيات كثيرة أخرى ومنها قوله تعالى : «حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون» سورة التوبة الآية - 59، لماذا لم يقل : (سيؤتينا الله ثم رسوله) وهناك آيات كثيرة تدل على ذلك، ودعني أضرب لك مثالا: لو جاءني شخص وفي قلبه نفاق وقال لي : أنت سيد الكويت!! فأني سأقول له: العفو أنا عبد من عباد الله، فالكويت فيها أميرها وسيدها، وأقول له أنا أقل مما قلت وأكبر مما في نفسك .

فالمقصود من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ليصح للصحابي، وقال الله تعالى في آيات كثيرة : «قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول». فلماذا نتمسك بهذه الجزئيات ونترك الكثير من الآيات وعلينا أن نأخذ الأمور بحسن نية، وإن كان البعض عنده وسوسة من الشرك حتى وصل الأمر بأحدهم حين سئل عن إطراء النبي صلى الله عليه وسلم فقال هذا شرك وهذا كفر، فإن هذا مغالاة، وبعد برهة يسأله عن يقول: «يا صاحب الجلالة»، فيجيب: يجوز تكريم من يستحق التكريم!! يقولون إن تقبيل اليد بدعة، إذن فقبلة الخشم (الأنف) ما حكمها؟ فلماذا يسكتون عن هذا ويقولون بهذا؟ فهناك العادات التي تتوارثها الأجيال تختلف من بيئة لأخرى. لكن هناك سوء ظن بالمسلمين، وسوسة وهناك من الجماعات من يريد أن يفرض الرأي الواحد وهذا يخالف العصر وطبيعته.

العلم اللدني

{ يعتمد الكثير من مشايخ الطرق الصوفية إلى شغل الناس بالأوراد والأذكار التي يكررونها آلاف المرات بما يلهيهم عن تعلم علوم الكتاب والسنة، بزعم الوصول من خلال هذه الأوراد إلى العلم اللدني، حتى إن بعض مشايخ الصوفية إدعوا التلقي المباشر عن الله فما ردكم على هذا؟

- لم أف على كتاب من كتب الصوفية يدعو مؤلفه مريديه لعدم تعلم العلوم الشرعية أو يزهدهم في طلب العلم، وإذا وجد الشخص الذي يقول بذلك فليس من أئمة الصوفية المعتمدين فعندنا مبدأ «كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر»، أي النبي صلى الله عليه وسلم وهي مقولة للإمام مالك رحمه الله، والله تعالى يقول «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر - 9)، فكيف نقول نحن أو نحذر من العلم، فأنا أشك في صحة هذا الاتهام لأئمة الصوفية المعتمدين، ولو كان حقيقة فيرد على صاحبه ولا يؤخذ منه، لأن المسلم لا يمكن له أن يعبد الله بغير علم، وكل ما في الأمر أن الخلاف يتمثل في أن الصوفية يؤمنون بوجود العلم اللدني بجانب العلم الشرعي وخصومهم ينكرون العلم اللدني، ولذلك يتهمون الصوفية بأنهم يؤمنون باللدني ويرفضون العلوم الشرعية، والحقيقة أن الصوفية يؤمنون بالعلمين (الشرعي واللدني) وغيرهم يؤمنون بالعلم الواحد فقط، ونحن نقول هناك علم شرعي معتمد وهناك علم لدني عبارة عن نور يقذفه الله في

القلب نتيجة التقوى والاستقامة، وهذا ثابت كما جاء في القرآن في سورة الكهف عن الرجل الصالح (الخضر) «فوجد عبدا من عبادنا أتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» (سورة الكهف - 95)، وقد كشف الله في سورة الكهف إن هناك حكمة لظواهر الأشياء وحكمة أخرى لبواطنها فهي عندنا لها تفسير ولها عند الله تفسير آخر، ولكن نحن مطالبون بالعلم الشرعي، أما العلم اللدني أو الباطني فنحن نسلم به، لكننا لا نعبد الله به ولا نجعله حجة على العباد، ونعتبر أنه نوع من الفراسة يهبه الله لمن يشاء، مثل الرؤيا التي يستأنس بها ولا يؤخذ منها حكم شرعي والله عز وجل يقول: «يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب» (سورة البقرة الآية - 269)، فمثلا عندما دخل رجل على عثمان بن عفان فقال لمن هم جلوس معه: (أيدخل علينا الرجل وأثر الزنا في عينيه؟)، فقال الرجل: أوحى بعد رسول الله؟ قال: لا، ولكنها فراسة المؤمن! فنحن نعتقد أن الإنسان الذي يستقيم مع الله ويصدق معه يجعل له نورا وشفافية قد يرى بها الأمور بمنظور قريب من الصواب والحكمة، أي يعطي السداد والتوفيق في الأعمال، كما نقولك «الله نور عليه»، وله دليل من القرآن، قال تعالى:

«ومن لم يجعل الله له نورا فما له نورا» (سورة النور - 40)، ويقول سبحانه وتعالى «أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (سورة الأنعام آية - 122).

وفي سورة الزمر يقول: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه»، (سورة الزمر - 22)، ونقول أن هناك العلم اللدني يؤتاه الخاصة من الناس، لكنه ليس حجة على العباد وهو شبيه بالعلم الذي كان عند الرجل الذي كان مع نبي الله سليمان والذي جاء بعرش بلقيس بما لديه من علم من الكتاب «قال الذي عنده علم من الكتاب» (سورة النمل - 40)، وهذا العلم كرامة للعبد الصالح من ربه تعالى ولا يجب أن نفاخر به على الناس فهو هبة من الله لمن يريد، والاستقامة عندنا هي عين الكرامة.

<http://www.alwasat.com.kw/Default.aspxMgDid=12138&pageId=85>

www.geocities.com/alrifaiia